

خبرة مُصلِّ في التفاعل مع التراتيل البيزنطية

دور المسبحة في صلاة الجماعة وتبرير "المطولات" في التراتيل البيزنطية

بقلم جوزيف يزبك

يعرض هذا المقال تصوّرًا شخصيًا لدى الكاتب، مبنياً على خبرة آباء الجبل المقدّس، لطريقة تفاعل المصلي مع التراتيل البيزنطية من أجل بلوغ أعلى تركيز وانسجام ممكن في الخدم الليتورجية.

• التعارض الظاهر بين صلاة المسبحة والاجتماعات الليتورجية:

لطالما صادفت في صلوات الجماعة الليتورجية مصليين قابعين في كراسيهم وقد تندلت من أيديهم مسابح سوداء تتغلغل عقدها بين أصابعهم وتروح تدور وتدور على وقع التراتيل دونما ضجر.

وكنت أعرف ان هذه المسبحة بعقدها المحكمة إنما تشكل السند الملموس لصلاة الرب يسوع القلبية، الصلاة الدائمة. فلا تنفك تعود جملة "أيها الرب يسوع المسيح يا ابن الله الوحيد ارحمني انا الخاطيء" على كلّ عقدة حتى تعبر من العقل الى القلب، لازمة لا ارادية تطرب اليها دقائق القلب روحياً.

وهنا كنت أنساءل: أوليست صلوات الجماعة "ملتقى" عشاق المسيح، "يجتمعون" الى وليمة سرية "يشاركون" فيها حلوة الرب؟ أوليست بالمقابل، صلاة القلب الدائمة أنموذج في الصلاة الفردية "يختلي" فيها العاشق المؤمن بمعشوقه المسيح؟ وأوليس في الجمع بين الاثنين - صلاة الجماعة وصلاة القلب - التقاء في العشق ولكن تناقض في الظروف؟ فكيف تختلي بمعشوقك وانت في حضرة الاخوة ولو تشاركتهم في المعشوق؟

• نقطة الانطلاق: خبرة الجبل المقدّس - آثوس

ازداد تسألني وتفاقم استغرابي مما كان يلوح لي تناقضاً عندما زرت الجبل المقدّس - آثوس - حديقة السيّدة العذراء، فما كان يبدو لي شواذاً، بان قاعدة معممة لدى رهبان الجبل؛ أعلّ الجميع جهالاً، أم لعلي على خطأ؟

اغتنتمت فرصة حديثي مع أحد الرهبان لأسأله عن داعي حيرتي فطرح أمامي فكرة أضاءت زاوية في تفكيري وتبلورت الى تصوّر لديّ أعرضه فيما يلي.

فكرة الراهب، وهي نابعة من خبرة روحية وعملية معاشة لدى الرهبان، تقوم على أنّ الرهبان، في صلاة الجماعة، ينصرفون الى صلاة المسبحة عندما يتعبون من التركيز، خاصة في الصلوات الطويلة كالسهرانيات. فبعد تركيز طويل للعقل على كلمات التراتيل يرتاح المصلون إلى صلاة الرب يسوع التي تقوم على الترداد بشكل أوتوماتيكي دون جهد، خاصة لمن كان متعوداً عليها.

• تصوّر لتكامل دور المسبحة مع التركيبة الليتورجية البيزنطية:

- هدف الترتيل:

من الثابت أنّ هدف الترتيل الاساسيّ هو جذب المصليّ الى كلمات التراتيل ومساعدته على التركيز عليها لأطول وقت ممكن. إلى جانب هذا الهدف تدرج أهداف للترتيل أقلّ أهميّة، ومنها خلق جوّ خشوعيّ أو جوّ عظمة ملوكيّة ترمز للملكوت،...

ما سنعرضه فيما يلي هو تصوّر شخصيّ مبنيّ على خبرة آباء الجبل المقدّس لطريقة تفاعل المصليّ مع التراتيل البيزنطية من أجل بلوغ أعلى تركيز وانسجام في الخدم الليتورجية.

- التحديّ الليتورجيّ:

من الثابت أنّ قدرة الانسان على التركيز على نصّ معيّن محدودة جداً في الوقت. وتضييق مساحة التركيز أكثر مع ازدياد انشغالات الانسان وهمومه الدنيوية في عصر التعقيد والسّعة هذا. وعليه، يكمن تحديّ الليتورجية الاكبر في جذب انتباه المصليّ وتركيزه على الصلاة لأكبر وقت ممكن.

- حلّ الترتيل البيزنطيّ والصلاة القلبية:

جاء حلّ الترتيل البيزنطيّ لهذه المعضلة في توزيع التراتيل على ثلاثة أنواع أساسية:

1. النوع الارمسيّ، أي السريع¹، مثل الطروبريات: "ان الحجر لمّا ختم من اليهود"، ...
2. النوع الستشيراري، أي المعتدل السرعة، مثل: "انتم الذين بالمسيح اعتمدتم"، ...
3. النوع الباباذي، أي المطوّل، مثل الشروبيونات: "أيّها الممثلون الشروبيم"، ...

يساعد هذا التنوع في الموسيقى، بحدّ ذاته، على التركيز لفترة أطول، أو على الأقلّ، على لفت نظر المصلي عند كل تغيير. إلا ان الحل الحقيقي فعّال أكثر بكثير إذ يعتمد على تنوع آخر على مستوى العقل متواز مع التنوع الموسيقي.

¹ في الواقع، لا يتوقف هذا التفريق على السرعة تماماً، بل على تواتر توزيع المقاطع اللفظية Syllables على وحدات الوقت في القطعة. ولكن ابتغاء في التبسيط ذكرنا معيار السرعة وحده.

في الواقع،

التنوع الذي نتحدث عنه هو تنوع في مستوى التركيز الفكري نفسه، ويمتد ما

بين:

1. التركيز الفكري الكليّ على كلمات التراتيل،
2. وإراحة تامّة للتركيز في أحضان الصلاة القلبية المبنية على التكرار الأوتوماتيكيّ.

وعليه،

1. في النمط الإرمسيّ وفي القراءات، يكون ورود الكلمات سريعاً بحيث يستغرق التفكير بالكلمات المرتلة تركيز المصليّ كلّهُ.
2. في النمط الستشيريّ، تخفّ سرعة ورود الكلمات، فيخفّ الضغط على تركيز المصليّ. وحتى لا يستغلّ الشيطان والاهتمامات الدنيويّة فراغات التركيز الناتجة عن هذه العملية، يُشغل المصليّ مسبحة - صلواته القلبية - فيملاً فراغات تفكيره تضرّعات لله، دون أن يُتعب تركيزه. بهذه الطريقة، تُصبح كلمات التراتيل بمثابة مواضيع تأمل تشغل المصليّ على وقع لازمة "ارحمني أنا الخاطيء".
3. في النمط الباباديّ، وهو نمط قليل الاستعمال في ليتورجيتنا، يرتاح التركيز شبه كليّاً، وتسنلم حراسة (بفتح التاء) المصليّ صلاة (بضمّ التاء) الربّ يسوع. وتعود الدّورة من جديد.

وبهذا التنوع الليتورجيّ، يصوّن المصليّ تفكيره "طارحاً عنه كلّ اهتمام دنيويّ" إذ يختلي جماعياً وإخوته بمعشوقهم ربّنا يسوع المسيح.